مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- جامعة غليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار 1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 08/ العدد: 01 جانفي (2022) - ص 231- 243

جدلية الصراع بين الأنا والآخر (الغرب/الشرق) والتمثيل الكولونيالي للآخر في الخطاب السردي

The dialectic of the conflict between the ego and the other (west / east) and the colonial representation of the other In the narrative discourse

نبيلة فراحتية
en.ferahtia@univ-blid2.dz
مخبر الدراسات الأدبية والنقدية
جامعة لونيسي علي - البليدة(2) /الجزائر

تاريخ الاستلام: 2021/11/05 تاريخ القبول: 2021/12/12 تاريخ النشر: 2022/01/23

ملخص البحث

لا يمكن الحديث عن الأنا دون الحديث عن الآخر ، فالذات تكشف عن هويتها من خلال الآخر المختلف عنها، الأمر الذي دفع الذات الغربية أن تجعل الشرق مِرآة تكشف من خِلاَلهِ عن نزعتها الفوقية ؛ وهي أحد ركائز الخطاب الكولونيالي الذي رسم حدود الشرق، وهو ما بلورته دراسات ما بعد الكولونيالية من خلال إعادة صياغة العديد من القضايا التي تنبثق عن علاقة (الشرق /الغرب) كسؤال الهوية والانتماء، والآخَر، والتغريب، والاستشراق وغيرها من المفاهيم البارزة في النقد ما بعد الكولونيالي، والتي يطرحها الخطاب السردي كإشكالية فكرية ثقافية ذات أبعاد سياسية.

الكلمات المفتاحية: الشرق– الغرب- التمثيل- الكولونيالية – الاستشراق .

ABSTRACT:

is not possible to talk about the ego without talking about the other, for the self reveals its identity through the other that is different from it, which prompted the western self to make the East a mirror through which it reveals its supremacist tendency; It is one of the pillars of the colonial discourse that drew the borders of the East, which was crystallized by post-colonial studies by reformulating many issues that emerge from the relationship (East / West) such as the question of identity and belonging, the other, Westernization, Orientalism and other prominent concepts in post-criticism Colonialism, which the narrative discourse poses as a cultural intellectual problem with political dimensions.

Keywords: East - West - representation - colonialism - Orientalism.

1. مقدمة:

لطالما ارتبطت مقولة الغرب بمقولة الشرق، وطُرحَت كقضية فكرية عكست طبيعة العلاقة الجدلية بين الأنا والآخر، والتي تعد من أهم قضايا الفكر الغربي والعربي المعاصر، وكأن فرصة اللقاء بينهما تقوم على الصراع والمواجهة يحاول كل منهما فرض ذاته وعدم الاعتراف بالآخر ؛ لذلك يستعمل مصطلح الأنا في الفكر الغربي للدلالة على الذات الغربية في مقابل الآخر الذي يدل على الشرق، في حين أن المفاهيم تتخذ الصيغة العكسية من طرف الشرق الذي يعتبر الغر آخر بالنسبة له؛ وبالتالي فإن تقصِّي هذه العلاقة تجعلنا نقف على الغموض الكبير الذي يكتنفهما، لأن العلاقة في جوهرها تسلم بمبدأ التعارض والاختلاف، ما خلق معادلة بين طرفين متضادين لا يمكن أن يلتقيا أبدا.

وقد شكَّل لقاء الشرق بالغرب قضية أدبية رصد خلالها الكتَّاب الأثر العميق الذي أحدثه التأثير الناتج عن هذه العلاقة بشقها الايجابي أو السلبي، فهي المرآة التي يرى فيها الشرقي نفسه منهزما ضعيفا متخلفا فيقابله الغرب بتحضره وتقدمه، وهي من القضايا التي شكلت موضوعا هاما في الخطاب السردي من خلال تمثيل تلك العلاقة تجلى اللقاء عبر ثنائيات مختلفة (ذكر/ أنثى)، (مستعمِر /مستعمَر)، (مركز /تابع)؛ ثنائيات لا تخرج عن إطار علاقة الشرق بالغرب، يتم خلالها تنميط صورة الآخر لغايات امبريالية يحملها الخطاب السردي الكولونيالي.

لذا نسعى من خلال هذه الأوراق البحثية الوقوف على إشكالية العلاقة التي تربط الشرق بالغرب من خلال تسليط الضوء على جدلية الصراع القائم بين الشرق والغرب بالإضافة إلى الكشف عن الأثر الثقافي الذي أحدثه الخطاب الكولونيالي في رسم حدود الغرب والشرق (أمة غالبة وأمة مغلوبة) من جهة وتبرير الفعل الاستعماري من جهة أخرى، والحديث عن إمكانية وجود خطاب مضاد يعيد رسم علاقة الشرق بالغرب من خلال الإجابة على الإشكالية التالية: ما هي العوامل التي ساهمت في تحديد العلاقة التي تربط الشرق بالغرب؟ وكيف تم تمثيل تلك العلاقة من قبل الخطاب الكولونيالي؟ وإلى أي مدى ساهم السرد الغربي في إخضاع الشرق للسيطرة والهيمنة؟ وهو ما سنجيب عنه باعتماد التحليل الثقافي والارتكاز على مقولات النقد الثقافي التي تساهم في الكشف عن علاقة الأنا بالآخر.

2. ثنائية العلاقة بين الأنا والآخر (غرب/شرق) :

يقوم مفهوم الشرق والغرب على التناقض، فكلاهما ذو طبيعة معقدة؛ إذ أن تحديدهما يختلف باختلاف زاوية النظر لتلك العلاقة من مبدأ الاختلاف الحضاري أو الجغرافي أو الثقافي أو السياسي ، لذلك عرف كل منهما تحولا دلاليا فالشرق هو"الأرض التي تقع خارج حدود الغرب ليتشكل من الحضارات العظيمة التي تقع شرق الغرب: الإسلام والصين والهند واليابان"[1]، وهو تقسيم جغرافي

للعالم ليتعين الغرب بأنه خارج عن حدود الشرق الجغرافية، فضلا عن كونه "اسم أطلقه الأوربيون الكاثوليك، على البلاد التي كانت خاضعة للإمبراطورية البيزنطية، منذ أن انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى شطريها المعروفين. ومن ثم أطلقه الأوربيون على بلاد الإسلام فيما بعد"[2]، فصار مفهوم الشرق انطلاقا من مدلوله الديني ممثلا للإسلام ككيان متفرد بخصائص ومرجعيات معينة في مقابل الغرب المسيحي، أما (تيري هانتش) (Thierry Hentsch) فيرى بأن الشرق "نقيض الغرب، وليس له حدود، بل يجوز أن يعني كل العالم الذي لا يدخل في دائرة الغرب وداخل امتداده المباشر"[3]، وبالتالي يكون الآخر (الغرب) كيانا ثقافيا وسياسيا مفارقا للشرق إلا أنه غير معيَّن الحدود لأنه يحتمل اتجاهين يكون فيهما إما: منبع إغراء وجاذبية، أو محل حيطة وحذر يهدد الذات.

أما ادوارد سعيد (Edward W. Said) في معالجته لتلك العلاقة فيرى أنه "إذا كان الشرق هو الآخر بالنسبة إلى الغرب فان الغرب سيرصد كل السمات التي يختلف بها الشرق عن الغرب بوصفها سمات دونية وربما غير آدمية"[4] ليتحدد مفهوم الغرب بأنه مفارق الشرق. وهو مصطلح ابتدعه الغرب لا يرجع لخصائص اجتماعية اقتصادية وثقافية بالدرجة الأولى إنما نابعة من العلاقة التي تربط الشرق بالغرب والفجوة القائمة على مبدأ القوة والسيطرة التي يحظى بها الغرب لاتكائه على النظام الرأسمالي، وبالتالي كانت دراسة (ادوارد سعيد) بمثابة "محاولة لإعادة قائمة بالآثار التي خلفتها في نفسي، باعتباره ذاتا شرقية تلك الثقافة التي كانت سيطرتها عاملا قويا في حياة جميع الشرقيين"[5].

وجلي بالذكر أن إشكالية العلاقة بين الأنا (الشرق) والآخر (الغرب) لم تكن وليدة العصور الحديثة إنما موصولة بتاريخ قديم من الصراعات حمل الغرب (الحضارة الأوروبية) خلالها صورة سلبية عن الشرق (الحضارة الإسلامية)، أو العرب بصفة عامة، وهي نظرة متجذرة في الماضي مستمرة عبر الزمن، يعود تاريخها إلى الحروب الصليبية التي جاءت "لترسخ صورة مشوهة للشرق العربي الإسلامي في المخيلة الغربية بسبب المواجهة الدموية، ذلك أن الأذى الذي جلبته الحروب الصليبية، لم يقتصر على اصطدام استعملت فيه الأسلحة بل كان أولا وقبل كل شيء أذى عقليا نتج عنه تسمم العقل الغربي ضد العالم الإسلامي"[6]، فنقلت أبشع الصور للمسلمين على اعتبار أنهم دمويون ووحوش وبربر، وأصبح مفهوم الحضارة الغربية بديلا لمفهوم العالم المسيحي، ليدل الغرب على كل ما ليس شرقا في نظرهم، ومنه يمكن القول أن الشرق والغرب مصطلحان اعتراهما تحول دلالي نابع من الوعي القائم لأحدهما تجاه الآخر عبر المراحل التاريخية المتعاقبة التي مر بها كلاهما.

كان اللقاء الحقيقي بين الشرق والغرب قد تحقق مرتين رئيسيتين في التاريخ، تجسد اللقاء الأول "مع وصول جحافل الإمبراطورية العربية الإسلامية بكل مقوماتها الفكرية والحضارية إلى الغرب الأوروبي مع مطلع القرن الثامن عشر"[7]، عبر تلك الرحلات التي قام بها العرب لنشر حضارتهم العربية

الإسلامية في أوروبا، في حين كان اللقاء الثاني كان مع بداية القرن التاسع عشر من خلال التصادم بين الذات والآخر في مصر تجسد من خلال الحملة التي قام بها نابليون على مصر سنة 1798 "حين وصل الغربي غازيا ومبشرا دينيا ومستعمرا وعالما ومعلما إلى عالمنا خاصة عبر بوابتي مصر وبلاد الشام"[8]، فكان ذا بعد عسكري سياسي شمل بلدان الشرق الأوسط نظرا لموقعها الاستراتيجي المهم لتمَثِّل الشرق والإسلام والعرب، وهي النقطة التي تهم الغرب، بالإضافة إلى أن الحملة كانت ذات وجهين: أحدهما يطبعه الغلاف الحضاري لما حمله العقل الغربي من مخططات علمية وانجازات حضارية وعلوم ومعارف مختلفة للشعوب العربية نظير ما تعانيه من تخلف وجهل، والوجه الآخر يضمر وراءه أحقاد الغرب وضغائنه القديمة، فانطلق من رؤية غربية استعلائية محكومة بموازين القوى والتفاضل الحضاري والثقافي والمعرفي والسياسي...، فتصدر بذلك المركزية الأوروبية بتصور تمجد من خلاله الذات يجعل الغرب مركز العالم، وأن العالم يعتمد عليها، ما ولدَّ رغبة لديها في السيطرة وإخضاع الآخر (الشرقي)، واستغلاله ماديا وعسكريا وسياسيا باعتماد شتى الطرق والوسائل.

ومن وهنا تحددت المواجهة الحضارية بين الأنا العربي والآخر الغربي، و"أنتجت لدي النحن العربية صورا ملتبسة ومعقدة عن الآخر/الغرب، اختلط فيها البعد السياسي بالبعد الثقافي وأخذت هذه الصور تتأسس في وعي المثقفين العرب من رواد النهضة الحديثة"[9]، إلا أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن ينكر الغرب تاريخ هذه الحضارات الإسلامية، فالعلاقة التي ربطت الشرق بالغرب قامت على التأثير والتأثر، حددتها ظروف جمعت بينهما عبر محطات زمنية مختلفة، لم تكن ايجابية بقدر ما كان يغلب عليها الطابع السلبي شكلا ومضمونا. فالمتأمل لعلاقة الشرق والغرب يجد أنماط مختلفة من الصراعات، وأن التواصل والحوار يكاد ينعدم "ليس لأن الشرق شرق والغرب غرب لم يلتقيا، فالمسألة تخص حكم التاريخ لا حكم الجغرافيا لأنه لا يقر بالانقسام الجغرافي للأرض، ولولا قانون التطور المتفاوت للتاريخ لما تكرس وجود غرب وشرق، ككيانات منفصلة "[10].

فيما يذهب (محمد شوقي) زين في تحديده لعلاقة بين الشرق والغرب بأنها علاقة توهمية هناك "بين النحن (الإسلام، الشرق، العالم اللاتيني أو الإفريقي) والآخر (الغرب) إغراءات عريقة في الزمن تعود إلى الادراكات القائمة على المتخيل، وأيضا اقصاءات هي نتاج المخاوف أو العداءات التي ليس لها مبدأ عقلاني منطقي سليم"[11]، ورأى بأن هناك مجموع من النقاط لابد من إدراجها لفهم معضلة الأنا والآخر، مفادها أن "العلاقة في الغالب خيالية أو توهمية، وكما يعترف مثلا ابن عربي في العصر الوسيط أو دريدا في العصور الراهنة الوهم هو أشد وطئا من الحقيقة له سلطة التحكم في التمثلات والأفعال فلا شك أن العلاقة بين الذات والآخر (الذات هي أيضا الآخر، والآخر هو أيضا الذات)، تكتنفهما الالتباسات مادامت النوايا مضمرة والإرادات غير محددة المعالم، فتتعامل الذات مع ما

تصطنعه في خيالها حول الآخر وليس هذا الآخر كما يتبدى في حقيقته الواقعية والتعارف هو السبيل الوحيد لتبديد المخاوف إبقائه في الغالب على الأوهام أو التمثلات الغامضة"[12]. لاعتبار أن كل من الأنا والآخر يضمر تصورا خاصا عن الآخر، فتكون العلاقة بينهما مبنية على أساس تلك التمثلات والصور الملتبسة التي رسمها، فلا يمكن أن يرى الشرقي الآخر الغربي إلا من منظوره هو، والحال نفسه بالنسبة للشرقي الذي يري الآخر(الغربي) بعين شرقيه لا غربية، وهو أمر طبيعي نتيجة لذلك يكون التعامل معه وفق صورة نمطية في الذهن وليس صورته الحقيقية، ما جعل شوقي زين يرى السبيل إلى التفكير في الدعوة لإقامة حوار حضاري، والوصول لحوار مثمر ولقاء سلمي، وتجاوز تلك الصور النمطية المشوهة وتقريب المسافة بين الأنا والأخر، إلا أن النظرة الاستعلائية للمركزية الغربية تجاه الآخر الشرق حال دون حصول حوار ثقافي متكافئ فضلا عن تباعد المستوى الفكري والثقافي والحضاري والاقتصادي بين الطرفين. ولعب الوهم دورا أساسيا عند الغرب القائم على التمثيل المؤدلج لصورة الشرق وتزييف تلك التمثيلات التي تحتكم على مبدأ القوة، والتي كان الغرض الأساسي منها احتواء الشرق وإخضاعه.

يضيف (شوقي زين) لما أشار إليه نقطة مهمة في تحديد علاقة الشرق بالغرب وهي الهيمنة كأحد مسوغات هذه العلاقة فيكون هناك "غالب ومغلوب أو متفوق ومتخلف، فكل حضارة راقية تنشئ علاقة تراتبية أو هرمية تستعبد من خلالها ما عداها من الثقافات المهمشة لتنفرد بالتفوق والقوة في تجلياتها السياسية والعلمية والاقتصادية والعسكرية"[13]. فهي تحافظ على تفوقها لتضمن مركزيتها الانطلوجية وعظمتها وسطوتها على غيرها من الشعوب والثقافات الهامشية أو الأطراف، خاصة وأن الشرق يعاني الركود والضعف، إضافة إلي إن تفوق أوروبا في العلوم المختلفة جعلها تحتل الصدارة وتسعى دائما إلى الحفاظ على مكانتها بين باقي الحضارات. فأصبحت بذلك مقولة تفوق العقل الغربي رائدة وان العرق الأبيض (الأوروبي) هو أساس الحضارة ومبعثها وأن ما عداها من الدول تعتبر متخلفة بحكم تركيبتها الدونية (الشعوب الملونة) .

1.2. التمثيل الكولونيالي للآخر (الشرق):

يأتي التمثيل باعتباره إستراتيجية خطابية استعمارية وآلية من آليات الهيمنة التي اعتمدها الغرب لإخضاع الشعوب الأخرى والسيطرة عليها وامتلاكها من خلال تشريق الشرق وتمثيله في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فقد تم تمثيل الآخر أو يمكننا القول صناعة الآخر من خلال التكلم نيابة عنه لأن الغرب يرى "بأنهم عاجزون عن تمثيل أنفسهم، يجب أن يمثلوا"[14]، وهو بذلك يكممه ويصادر صوته وتاريخه ويقتلع جذوره الثقافية، ولا يسمح لهم بتمثيل أنفسهم فقد تمكن الغرب من الاطلاع على علوم الشرق وثقافته وشعبه ما جعله موضوعا للدراسة وتمكن بذلك من تمثيل الشرق

ليفضي إلى مجموع من الخصائص التي ميزت الشرق في نظر الغرب؛ أي أن الخطاب الكولونيالي *[15] الثقافي الغربي اتخذ من السرد وسيلة ثقافية ليهيمن بواسطتها على الشعوب الغير أوروبية.

ويعد (ادوارد سعيد) (Edward W.said) أول من افتتح هذا الحقل من الدراسات الثقافية ما بعد الكولونيالية*[16] من خلال كتابه (الاستشراق) حين لفت الانتباه إلى الطريقة التي انتهجها الخطاب الأدبي الغربي في وصف الشرق أو اختلافه، فكان مشروعه الفكري تقويضا للخطاب الاستعماري الذي صنع شرقا متخيلا بعيون غربية مشبعا بالعنصرية الغربية الامبريالية التي قسمت العالم إلى سلسلة من التعارضات والثنائيات (أنا/خر) (ابيض/اسود) (شرق/غرب)، تقوم بالأساس على مجموع من الأحكام المسبقة والتصورات والكليشيهات التي سادت كمنطق يحكم علاقة الشرق بالغرب، تبتعد عن الموضوعية بالقدر الذي تقترب فيه من التحيز والذاتية والخداع، فقد "أنتج الوعي الغربي صورة تنميطية سرمدية للشرق وللشرقي كونه متخلفا ولا عقلانيا وشهوانيا تدفعه غرائزه للبحث عن النساء بدافع جنسي أينما حل، فهو كائن ليس له مؤهلات نفسية وفكرية وثقافية ما يمكنه من فهم الذات والتاريخ والعلاقات الاجتماعية، وأن تطوره لا يكون إلا تطورا معاقا أو مشوها، وأن خلاصه الوحيد هو تقليد الغرب"[17]، ما يجعل نفسه مركز العالم ومنبعا للحضارة والعلم والتقدم والنقاء العرقي ويستنكر العرب والمسلمين ويقر بأنهم شعوب همجية متخلفة شريرة؛ أي النظر إلى الآخر انطلاقا من الذات كما يقول حسن حنفي: "الاستشراق هو رؤية الأنا الشرق من خلال الآخر الغرب"[18]، وهي رؤية محكومة بمصالح وغايات امبريالية لا "ترى الغير سوى موجودات مشوبة بالنقص أو كحقل خصيب لاختباراتها وقسوة أحكامها"[19]، يختزل خلالها الشرق وفق تنميط خاص ليعيد تشكيله، إنه أحد أوجه الاستعمار الغربي للمشرق الذي يعمل على تذويب وتذويت الشرق لاحتوائه واحتلاله ودمجه اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا وسياسيا.

فالاستشراق هو "معرفة بالشرق تضع الشرقي في قاعة التدريس، في محكمة، في السجن، أو في دليل موجز لأغراض التحليل المدقق والدراسة والمحاكمة، والتأديب، أو الحكم"[20]، وهو ممارسة معرفية عقلية غربية تجعل من الشرق موضوعا لها وتحددها وفق منظورها الخاص ضمن سياق المركز، وأن "ما قام به الاستشراق في ادعائه معرفة الشرقيين tals-orien هو أنه صورهم بوصفهم الآخر بالنسبة للأوروبيين"[21]، عبر رسم حدود أمة خاضعة تحتاج إلى توجيهها، فتفرض بذلك سيطرتها عليها، فجعل الشرق موضوعا معرفيا لاستغلاله اقتصاديا، والسيطرة عليه عسكريا. أي الآخر المختلف اثنيا وثقافيا عبر رسم حدود أمة خاضعة وأمة مسيطرة.

كما يذهب (ادوارد سعيد) إلى أنَّ "الرواية التي عاصرت الاستعمار وتوسعاته أقامت تمايزا مطلقا بين الذات الغربية والآخر أفضى إلى متوالية من التعارضات والتراتبيات التي منحت حقا أخلاقيا يقوم

بموجبه الطرف الثاني بحجة تخليصه من وحشية ووثنية وهامشية، وهذا التمايز وفر اعتصاما بالذات وتحصنا وراء أسوارها المنيعة وإقصاء الآخر وتشويه حالته الإنسانية وهو من نتائج ثقافة التمركز على الذات"[22]. لذا يمكننا ملاحظة النرجسية الغربية التي تقوم بأفضليتها على باقي الشعوب من خلال التمثيل الخاطئ الذي طال الشرق من قبل الغرب عبر النصوص الاستشراقية الغربية، "فليست معرفة الآخر فعلا بريئا محايدا على الإطلاق، والتحليل الجينالوجي للمعرفة كما يقول ميشال فوكو(Foucault Michel) يبين أن المعرفة مشبوكة بإرادة القوة والهيمنة دائما وان ما من معرفة إلا وتقوم على الظلم والخطأ"[23]. فمساعي المستعمر الغربي تتمحور حول السيطرة على الدول المستعمرة واستنزاف ثرواتها بالقوة والعنف واعتبار ذلك ضريبة من ضرائب التحضر ويتحول التحضير إلى همجية وبربرية وسيطرة ونهب واستلاب وعدوان التي مهدت الطريق للاستعمار وبررت له عدوانيته بدافع تحضير الشعوب الأخرى المتخلفة.

لذلك يمكن القول أن السرديات الكولونيالية قسمت العالم تقسيما جغرافيا إلى عالمين: عالم متقدم، وعالم متخلف؛ وهي نصوص سردية ذات غايات امبريالية تسعى للسيطرة على الجزء الآخر من المعمورة من خلال تصوير "المستعمَرين بوصفهم شعوبا من أنماط منحطة بسبب أصلهم العرقي، وذلك لكي يبرّر فتح هذه الشعوب، ولكي يقيم بين ظهرانيها أنظمة الإدارة والتوجيه"[24]. ويتحكم فيها ويستغلها، لذا قام ادوارد سعيد من خلال كتاب الاستشراق بتفكيك تلك النصوص السردية واستجلاء الأنساق الخفية والمضمرة فقام بتحليل رواية أما في كتابه (الثقافة والامبريالية) فقد "بلور نظرية في تطور الرواية تنطلق من العلاقة الخفية المتواجدة بين إرادة تسريد العالم وإرادة التسلط عليه"[25]. وهو ما جعله متأثرا بـ **(فرانز فانون)** (Frantz Fanon)*[26] من هذه الناحية، وَوَرَد هذا الاعتراف منه في كتاب (الثقافة والامبريالية) من خلال قوله: "لئن كنت لقد أكثرت من الاقتباس عن (فانون) فما ذلك إلا لأنني اعتقد انه يعبر باحتدامية وحسم يفوقان ما يفعله شخص آخر... وعلى أية حال فإن (فانون) لا يُفهَم إلاَّ إذا أدركنا أن عمله كان استجابة لاحكامات نظرية أنتجتها ثقافة الرأسمالية الغربية المتأخرة، التي استقبلها مثقف العالم الثالث الاصلاني بوصفها ثقافة للقمع والاستبعاد الاستعماري" [27]. وظهور حقل الدراسات الما بعد كولونيالية أو نظرية ما بعد الكولونيالية كممارسة ثقافية مضادة للفكر الامبريالي الكولونيالي والتي بدورها تعنى بدراسة العديد من القضايا المهمة المتعلقة بالأنا والآخر نذكر منها: المركز والهامش، الأعراق، الزنوجة، الغيرية، العنصرية، الهجنة، تفكيك الاستعمار، التبعية، الاثنية، لترميم تلك الهويات المتشظية واسترجاع حريتها وانسانيتها، وكذا مناهضةً للفكر الإمبريالي. وكان أبرز أقطابها المؤسسين هومي بابا (Homi .K. Bhabha) * [28] وجي سي سبيفاك (Gayatri Chkravorty Spivak)*[29] وفرانز فانون، من خلال مناهضتهم للاستعمار الغربي وأشكال الهيمنة التي يفرضها الغرب.

1.1.2. تأنيث الشرق:

كان الشرق في المخيلة الغربية يمثل بلاد السحر والجمال والعجائب والغرائبية، وهو الأمر الذي دفع المثقفين الغربيين لزيارته والتمتع بمغرياته، وقد كانت لتلك الرحلة انطباعات تختلف عن تلك الصورة التي يحملها الغرب عن الشرق، فأصبح الشرق الملاذ الذي يستهوي الكتاب والشعراء والمثقفين ويجذبهم، لاسيما أن الغرب قد كان يعاني في تلك الفترة صراعات إيديولوجية وسياسية.

وقد أخذت العلاقة بين الشرق والغرب في المخيلة الغربية أبعادا أخرى، حيث تم تجنيس العلاقة بين الشرق والغرب ليقابلها الأنوثة والذكورة، "فيغزو الخطاب الغربي الشرق عبر ذكورية ترمز إلى العلاقة العادية بين الرجل والمرأة فالغرب قوي مهيمن، والشرق صامت واهن سلبي"[30]، ولاعتبارات تاريخية وثقافية تجعل الشرق يمثل الأنثى في مقابل ذلك يمثل الغرب الذكر. وهي علاقة تحكمها القوة والسيطرة فالأنا تمثل الأنثى المقهورة في مقابل الأخر الرجل الذي يتميز بالسلطة فتكون المرأة تحت وصاية الرجل فتخضع وتستسلم له، لذا كثيرا ما كان الشر يوصف "بأنه أنثوي وكثيرا ما وصفت ثرواته بأنها خصبة وكثرا ما اعتبرت رموزه الأساسية على أنها المرأة الشبقية والحريم والحاكم المستبد إنما المثير للإعجاب وعلاوة على ذلك فقد ألزم الشرقيون الصمت والإنتاج الوافر بلا حدود شانهم في ذلك شأن ربات المنازل"[31]؛ أي أن المرأة رمز الخصب والعطاء، فيجعلها الرجل الغربي تثمر، الأمر الذي جعل الغرب يبيح لنفسه احتلال الشرق واستغلاله.

وغالبا ما كانت كتابات الرَّحالة ترى في الشرق محل المتعة والمغامرة الايروتيكية، فقد صوَّر **فلوبير (Flaubert)** المرأة الشرقية على أنها شبقية حيث يقول: "المرأة الشرقية ليست أكثر من آلة، فهي لا تفرق بين رجل وآخر"[32]، وبالتالي صار الخطاب الكولونيالي خطابا ذكوريا يستبيح لنفسه المرأة الشرقية ويهيمن عليها، ويصفها بأنها خاضعة مستضعفة وانبتت في الفكر الغربي نظرية مفادها أن المرأة الشرقية شهوانية تنتظر الرجل الأبيض وترتمي في أحضانه، لذلك "كان الشرق مكانا يذهب إليه المرء بحثا عن تجربة جنسية لا تنال في أوروبا"[33] التي وضعت مجموع من القوانين الأخلاقية والسياسية والاقتصادية خاصة في القرن التاسع عشر.

ومنه يمكن القول أن الخطاب الاستشراقي الكولونيالي تجاه الشرق المتخيل لم يكن فعلا بريئا، إنما يحمل انساقا ثقافية ذات مطامع امبريالية، "ففضائل الرجولة لم يتغن بها أحد كما تغنى بها الخطاب الكولونيالي، فليس من قبيل الصدفة أن توصف بعض القارات والبلدان بالبكر أو العذراء، في المقابل أن يكون الفاتح والمستكشف والمستعمر والمستوطن هو الرجل الأبيض (الأوروبي)، وبالتالي فان الرحلة الاستكشافية التي يقوم بها الرجل الأبيض بالأراضي البكر تشبه علاقة المستعمر بالمستعمر، وعلاقة الرجل بالمرأة، علاقة يحكمها مبدأ السلطة والقوة بين طرفين أحدهما مسيطر والآخر مستلب

ومستسلم"[34]، ومن ثم تكون السيطرة الغربية على الشرق في خطاباتهم معادلا للاحتلال الكولونيالي لبلدان إفريقيا وبعض قارة آسيا للسيطرة سياسيا وعسكريا وثقافيا واقتصاديا. فمن خلال علاقة الرجل بالمرأة نشأت عدة علاقات أخرى كعلاقة المستعمِر بالمستعمَر، علاقة السيد بالعبد وأيضا علاقة الأبيض بالأسود، وهي علاقات تفرق بين الأنا والآخر انطلاقا من عدة أبعاد سياسية ثقافية اجتماعية أيدلوجية وجغرافية يحكمها منطق القوة والسيطرة، لذا كانت في الغالب يهيمن فيها الغرب على باقي الشعوب والبلدان .

3.الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي :

مقابل الخطاب الكولونيالي ظهر خطاب عربي أعاد رسم علاقة الشرق من وجهة نظر الذات الشرقية ووجد له مساحة كبيرة في المنجز الأدبي العربي،كنوع من الإستراتيجية المضادة التي" تفكك الصور النمطية المتحيزة ايديولوجيا للمركزية الغربية منطلقة من الوعي بأهمية امتلاك الكلمة والصوت في تمثيل الذات" [35] طُرحت خلاله إشكالية المواجهة بين الشرق والغرب بقوة في الخطاب السردي لتمارس اللغة دور المقاومة من خلال السلطة التمثيلية التي يغدو فيها الشرق ذكر والغرب أنثى، وعرفت هذه الروايات بروايات الصراع أو المواجهة الحضارية "تسليمية بأن العلاقة بين الأمم والحضارات هي كالعلاقة القائمة واقعا بين الرجل والمرأة؛ علاقة قوة تحكم وسيطرة وبالتالي استسلام ورضوخ ومعاناة فكان أن تبنى بدوره التصور المتربولي القائل بأن المثاقفة مجامعة" [36]، بعد أن ظل هاجس تفوق الغرب يطارد الذات الشرقية ويعمق إحساسها بضعفها وتخلفها، حيث بات تجنيس العلاقات الحضارية في الرواية العربية يمثل ضرورة فنية كان أبرز نماذجها: رواية (عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم1973، ورواية (الحي اللاتيني) لسهيل إدريس 1953، ورواية (موسم الهجرة إلى الشمال) للطيب صالح 1966، ورواية (قنديل أم هاشم) ليحي حقي1944.

ومن بين أهم ما تتقاطع فيه هذه الأعمال أن البطل شاب مثقف يسافر إلى الغرب يلتقي بالآخر - الحضارة الغربية - فرنسا أو بريطانيا- للدراسة وإقامة علاقة جنسية، إلا أن هذه الروايات يغدو فيها مفهوم العلاقة بين الرجل والمرأة موجها بالأساس لعلاقة الشرق بالغرب عبر توظيف رمزي، لذا تعتبر هذه الروايات ضمن روايات ما بعد الكولونيالية لأنها تقوم بتجنيس العلاقة، وهي علاقة عكسية أصبح الشرق رجل والغرب امرأة، يحاول الذكر الشرقي إبراز فحولته في مقابل شبقية المرأة الغربية أي خضوع المرأة واستسلامها وهو ما طرحه "**فرانس فانون**" F.fanoune في كتابه (جلد أسود وأقنعة بيض) حين أولى اهتماما خاصا بالعلاقة الجنسية المتبادلة بين المستعمر والمستعمَر، "فالزنجي بإقامته علاقة جنسية طوعية أو عصبية مع المرأة البيضاء ينتقم من المستعمِر ويثبت له أنه رجل مثله"[37] وبالتالي فان تجنيس العلاقة يعد أحد الوسائل التي يعتمدها الكاتب للتعبير عن علاقة الشرق بالغرب

في السرد العربي تنطلق من تنطلق من تلك النظرة الشرقية التي يحملها المجتمع الذكوري الشرقي للأنثى.

وقد اتجهت العديد من الدراسات النقدية إلى تحليل الأعمال الروائية التي تضمنت علاقة الشرق بالغرب أو الشمال بالجنوب باعتماد وفق استراتيجيات نقدية وآليات منهجية متعددة ليعكس صدمة الشرق بالغرب عبر نماذج روائية عربية، تقوم بالدرجة الأولى على مقاربة النصوص مقاربة ثقافية مركزة على موضوع الصراع الحضاري رغم تباين النقاد لاختلاف الزمان وتطور الأحداث ونرصد من بين تلك الدراسات النقدية التي تمكنا من الوصول إليها: جورج طرابيشي في كتابه (شرق غرب رجولة و أنوثة)، نبيل سليمان (وعي الذات والعالم)[38]، منصور قيسومة (الأنا والآخر في الرواية العربية الحديثة)[39]، وسالم معوش في (صورة الغرب في الرواية العربية)[40]، وكتاب (الذات والمهماز لمحمد نجيب التلاوي)[41]، اشتغلوا خلالها على العلاقة المتوترة بين الأنا والآخر ، إلا أن ما يتم ملاحظته على هذه الدراسات أنها ركزت على نماذج مشتركة في الغالب (توفيق الحكيم، وسهيل إدريس، ...) إلا أن الحظ الأكبر والاهتمام الذي عرفته رواية موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح من ناحية التركيز على الآخر المستعمر بتسليط الضوء على الاتجاه السلبي للعلاقة .

وازداد طرح قضية الأنا والآخر أو علاقة (الشرق والغرب) بعد الأحداث الأخيرة التي شهدها العالم مع أحداث سبتمبر 2001 حينما تم اختزال الذات العربية في صورة المتطرف والإرهابي فهو المختلف عنها اجتماعيا وعقديا وثقافيا ولغويا، وأصبحت الذات العربية الإسلامية من وجهة نظره تمثل تهديدا صارخا يواجهها، وتم تشويه صورة الإسلام وتخلق صورة نمطية همجية تمارسها في مختلف الوسائل الإعلامية فكانت المواجهة بين الأنا والآخر مواجهة ايدولوجية، ما جعل الآخر يتوسع ليتجاوز صورة العدو الغربي إلى أنماط مختلفة فاتخذ صورة الإرهابي والمغتصب، والمتطرف.

4.خاتمة:

من خلال الوقوف على العلاقة التي ربطت الشرق بالغرب رصدة مجموعة من النتائج التي يمكن أن نلخصها في النقاط التالية :

- مقولة الشرق والغرب مقولة غربية لا تحتكم إلى تقسيم جغرافي بالقدر الذي يقسم فيها العالم ثقافيا إلى عالم متقدم وعالم متخلف.
- الخطاب الاستعماري يحمل في طياته غايات استعمارية امبريالية تجاه الشعوب الغير الأوروبية.

- يعد ادوارد سعيد من رواد نظرية ما بعد الكولونيالية، طرح العديد من القضايا من خلال نقده للخطاب الاستشراقي في مؤلفاته -أبرزها كتاب الاستشراق والثقافة والامبريالية - ليعالج تلك القضايا المتصلة بعلاقة الشرق بالغرب كالتمثيل والهيمنة وتفكيك الخطاب الاستعماري .

- في مقابل الخطاب الكولونيالي ظهر خطاب مقاوم في القارات المستعمَرة يعمل على تفكيك وتقويض الخطاب الكولونيالي الغربي وفضح السياسة الغربية الاستعمارية وهو ما يعرف بآداب ما بعد الكولونيالية.

الاحالات

[1] ضياء الدين ساردار،(2011 م)، الاستشراق، صورة الشرق في الآداب والمعارف الغربية، تر : فخري صالح، كلمة،أبو ضبي، ط1، ص22.

[2] محمد راتب الحلاق،(1997م)، نحن والآخر، دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر الشرق/ الغرب /التراث/ الهوية/ الممكن / الواقع، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ب ط، ص10.

[3] محمد نور الدين افاية، (1993 م)، المتخيل والتواصل مفارقات العرب والغرب، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت/ لبنان ب ط، ص96/95.

[4] ميجان الرويلي،سعد البازغي،(2002م)، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت /لبنان، ط3، ص 22.

[5] ادوارد سعيد، (1984م)، الاستشراق، المعرفة السلطة الإنشاء، تر كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت/ لبنان، ط2، ص85.

[6] عبد الله إبراهيم، (2010 م)، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ط1، ص179.

[7] كاظم نجم عبد الله،(2007م)، الرواية العربية المعاصرة والآخر، دراسات أدبية مقارنة،عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، اربد، ط1، ص63.

[8] -المرجع نفسه، ص 63.

[9] فتحي أبو العينين،(1999م)، صورة الذات وصورة الآخر في الخطاب الروائي العربي تحليل سوسيولوجي لرواية محاولة للخروج، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، تحرير الطاهر لبيب، المركز دراسات الوحدة العربية، بيروت/لبنان، ط1، ص 814.

[10] جورج طرابيشي، (1997م)، شرق غرب رجولة وأنوثة، دار الطليعة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/لبنان، ط4، ص191.

[11] محمد شوقي الزين، (2012م)، الذات والآخر - تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع، دار الأمان/ منشورات ضفاف، بيروت/لبنان، ط1، ص9.

[12] المرجع نفسه، ص9

[13] المرجع نفسه، ص9

[14] ادوارد سعيد، الاستشراق، (مرجع سابق) ، ص 35.

[15] الخطاب الكولونيالي colonial discourse : منظومة من المقولات التي يمكن إطلاقها عن المستعمرات والشعوب المستعمَرة وعن القوى المستعمِرة وعن العلاقة بينهما وهو منظومة المعرفة والمعتقدات بشأن العالم الذي تحدث داخل أركانه فعل الاستعمار (بيل اشكروفت، جاريث جريفيث، هيلين تيفين، (2010م)، دراسات ما بعد الكولونيالية تر: أحمد الروبي، أيمن حلمي، عاطف عثمان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، ص101).

[16] ما بعد الكولونيالية : post-colonialisme يستعمل مصطلح ما بعد الكولونيالية ليشمل كل ثقافة تأثرت بالعملية الامبريالية منذ اللحظة الكولونيالية حتى يومنا الحالي وبناء على ذلك تندرج تحت مصطلح آداب ما بعد الكولونيالية آداب كل من إفريقيا واستراليا وبنغلادش وكندا وبلدان منطقة الكاريبي (ينظر بيل أشكروفت، غاريث غريفيث، هيلين تيفن، (2006)، الرد بالكتابة، تر: شهرت العالم مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت/لبنان، ط1، ص16.

[17] سمير خليل، (2016م)، دليل مصطلحان الدراسات الثقافية والنقد الثقافي،دار الكتب العلمية، بيروت، ب ط، ص 27.

[18] عامر عبد زيد الوائلي، (2015م)، تأصيل المفهوم (الاستشراق)، من كتاب موسوعة الاستشراق معاودة نقد التمركز الغربي وكشف التحولات في الخطاب ما بعد الكولونيالي، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، ص15.

[19] محمود حيدر،(1439هـ/2018م)، الغيرية البتراء- حيث لا يرى الغرب إلا نفسه- مجلة الاستغراب، تصدر عن المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، بيروت/لبنان، العدد10، السنة الرابعة، ص9.

[20] ادوارد سعيد، الاستشراق، (مرجع سابق)، ص72 .

[21] سمير خليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، (مرجع سابق)، ص 12.

[22] عبد الله إبراهيم، (2003م)، السردية العربية الحديثة، تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ المغرب، ط1، ص 71.

[23] ناظم كاظم، (2004م)، تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، دار الفارس للنشر والتوزيع، بيروت/ لبنان، ط1، ص43.

[24] ك هومي .بابا، (2004م)، موقع الثقافة، تر: ثائر ديب، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، ص 151.

[25] وحيد بوعزيز، (2018م)،جدل الثقافة،دار ميم للنشر ، الجزائر، ط1، ص 34.

[26] فرانز فانون Frantz Fanon: (1925 /1961) طبيب نفساني وفيلسوف مارتينيكي من أشهر أعماله كتاب (معذبون في الأرض)1961 دعا فيه الشعوب المستعمرة إلى الثورة على جلاديها، حيث سعى للتعبير عن الوعي المضطهد للمواطن المستعمَر. ينظر (اندرو ادجاروبيتر سيد جويك، (2014م)، موسوعة النظرية الثقافية المفاهيم والمصطلحات الأساسية، تر: هناء الجوهري،المركز القومي للترجمة، القاهرة/مصر، ط2، ص566.)

[27] ادوارد سعيد، (2014م)، الثقافة والامبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت/لبنان، ط 4، ص 224.

[28] *هومي بابا (Homi .K. Bhabha) أستاذ الأدب الانجليزي والفن في جامعة شيكاغو،...والموصوف بأنه من بين العشرين المفكرين الأبرز في حقبتنا، مؤلف (موقع الثقافة1994)، و(محور الأمة والسرد1990)، وكلاهما كان له نفوذ واسع ورفيع في تحديد ما تعنيه الدراسات الكولونيالية والثقافية في رسم آفاق النظرية المعاصرة. ينظر : هومي ك،بابا، موقع الثقافة، مقدمة المترجم، ص34.

[29] غياتري سبيفاك: (Gayatri Chkravorty Spivak): تعد الناقدة جي سي سبيفاك من المؤسسين الفعليين للخطاب الكولونيالي الجديد، وتعد كذلك أول منظرة نسوية بحق في مرحلة ما بعد الاستعمار، فلقد انتقدت الحركة النسوية الغربية، انتقادا عنيفا بتركيز اهتمامها على عالم البيض من الطبقة المتوسطة ومن جنسين مختلفين، وقد ركزت على ما أصبح يعرف في دراسات ما بعد الاستعمار باسم (الأتباع)... للإشارة إلى جميع المستويات المتدنية من "المجتمع الاستعماري" وما بعد الاستعماري، وخاصة في مقالها: (هل يمكن للتابع أن يتحدث؟ 1988). ينظر جميل حمداوي، (2018م)، نظرية ما بعد الاستعمار، مساهمة في التأسيس لعلم الاستغراب، نحن وأزمنة الاستعمار، نقد المباني المعرفية للكولونيالية وما بعد الكولونيالية،ج4 ،تقديم وتحرير محمود حيدر، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، ط1، بيروت/لبنان، ص36.

[30] ماجدة حمودة، (2013م)، إشكالية الأنا والآخر،نماذج روائية عربية، عالم المعرفة، الكويت، ب ط، ص 21 .

[31] ادوارد سعيد، (2007م)، تأملات حول المنفى تر ثابت ديب، دار الآداب، بيروت/لبنان، ط2، ص150-151 .

[32] ادوارد سعيد، الاستشراق،(مرجع سابق) ، ص199.

[33] المرجع نفسه، ص202.

[34] - ينظر جورج طرابيشي، شرق وغرب، رجولة وأنوثة، (مرجع سابق)، ص 09.

[35] محمد بوعزة، (2014م)، سرديات ثقافية (من سياسة الهوية إلى سياسة الاختلاف)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، ص51.

[36] جورج طرابيشي، شرق وغرب، رجولة وأنوثة، (مرجع سابق)، ص 15.

[37] - المرجع نفسه، ص9.

[38] نبيل سليمان،(1985 م)، وعي الذات والعالم، دراسات في الرواية العربية، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ب ط.

[39] منصور قيسومة،(1994م)، الأنا والآخر في الرواية العربية الحديثة، دار سحر للنشر ، تونس، ب ط، ص20.

[40] سالم معوش، (1998 م)، صورة الغرب في الرواية العربية، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/لبنان، ط1.

[41] محمد نجيب التلاوي،(1998 م)، الذات والمهماز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ب ط.